

التفاعل المعرفي بين الصوتيات واللسانيات - تجلياته النظرية واستخداماته التطبيقية -

د. جميلة رواق

جامعة الشلف

مقدمة:

إنّ ثمة علاقة جدلية بين الحقلين (الصوتي واللساني) تنطلق عكسا وطرذا، من حقل لغوي لثان ومن ثان لأوّل، فمتى كانت الصوتيات قيد التطبيق العملي، يكون الحقل اللساني في حالة المطاوعة يستمدّ من دورة التطبيق نظرا جديدا ويغتنى، ويكون حينئذ مدّ التأثير متّجها من الحقل الصوتي إلى الحقل اللساني؛ حتى يتشبع المجال الأخير من معطيات المجال السابق ويبلغا حدود التكافؤ - إنّها أهنأ الفترات التفاعلية - ومن ثمّ ينبري الحقل اللساني بدوره إلى العمل والتطبيق فيتشوّف آفاقا أبعد يخطط لها نظريّا انطلاقا من واقع الدرس الصوتي الراهن أمامه بغية تطويره، ولا حاجة بنا إلى القول إنّ الدرس الصوتي يستكين في هذه الحالة ويتأهّب، كما يستجيب في دورته التالية لتأثيرات الدرس اللساني الصاعد حتّى يحصل التّكافؤ، وينقلب المدّ إلى سيرته الأولى وهلمّ جرّا من حقل لثان ومن ثان لأوّل.

ولإبراز اللعبة الجدليّة بشكل حسيّ، يمكن اللجوء إلى واقع إبداعى قيد التطبيق، فنقابله بواقعه في الفكر النظري، وليكن هذا الواقع العملي مثلا واقع مدرسة لغوية جمعت بين الحقلين معا وغيرها من علوم لغويّة قال فيها أصحابها: "إنّ ما يعرض للغات من تغير؛ إنّما هو بفعل قوانين عمياء".

لطالما شكلت قضية المدارس اللسانية واتجاهاتها في مختلف العلوم اللغوية معضلة بالنسبة للمتخصّصين في حقولها الكثيرة والمتنوعة، بين من يدعو إلى التنظير أو التجريب ومن ينادي بالتطبيق أو التأويل، فعلى اعتبار أنّ أوّليات الإرهاص العلمي والتفاعل المعرفي بين مستويات التحليل اللساني بخاصّة المستوى الصوتي فهو حقل لغوي كان ولا يزال يهتم به الدّارسون، لأنّه يعدّ أرضية ممهدة لكلّ الحقول اللغوية الأخرى، وقد جاز نعتة بالعمود الفقري في البحث اللساني-يمثل محل نزاعات وخلافات لا تهدأ، فقد كتبت مؤلفات عديدة بهذا الصدد بين أنصار الصرامة المقرّفة والتسيّب اللامحدود "التأويل"¹، وهذا بداية من النحاة الجدد فحلقة براغ ... وصولا إلى يومنا هذا.

وعليه تنظر المدرسة الصوتية الوظيفية إلى اللسانيات على أنّها دراسة اللغة البشرية، ولما كانت اللغة الإنسانية لا تقوم إلّا على شكل ألسن خاصّة (لغات ولهجات)، فاللسانيات بعامة إذ هي دراسة الألسن.

الجديد في الأمر أنّ لسانا ما يدرس - آخذين بعين الاعتبار أنّ موضوعه الوحيد والصحيح هو اللسان معتمدا بذاته ولذاته، عادة ما تتمّ دراسته - وفق أفهمي "التزامن والتعاقب"، فالتزامن نعني به دراسة هذا اللسان في حركيته وظائفه ضمن مرحلة زمنية معيّنة، وفي حيّز جغرافي محدد، أمّا التعاقب فيراد به دراسة حقبة من حقب تطوّر هذا اللسان .

1- جدلية التفاعل الزمني بين الصوتيات واللسانيات :

لما كان ظهور الصوتيات مترامنا واللسانيات، أدّى ذلك إلى إحداث عمليتي الأخذ والعطاء بين العلمين في الآن ذاته، سواء على الصعيد النظري المفاهيمي أو الإجرائي التطبيقي، فالفضل كلّ الفضل كان عائدا لثلة من العلماء الذين تقاطعت أفكارهم وآراؤهم وأبحاثهم النظرية والتطبيقية العلمية واللغوية مع بعضها البعض، لتفرز تلك العلوم اللغوية المتفاعلة آنذاك، مع العلوم الطبيعية، والفيزيائية، والتجريبية السائدة في تلك الفترة من الزمن.

إنّ علماء من وزن " وايتني (Whitney) - هبولدت (Humboldt) - بودوان دي كور تناي (De Courtenay) - شلا يشر (Schleicher) - دي سوسور (De Saussure) - وجاكبسون (Jacobson)..." وغيرهم لا يمكن حصرهم في مدرسة لسانية معيّنة وواحدة.

هذا لا ينفي وجود دراسات زمنية كان الغرض منها بحث تلك الجهود الخاصة بالدراسة الصوتية في التراث المنبثقة من إشارات النحاة واللغويين القدامى، والتي بثّها أئمة اللسان العربي إلى تنظير النحاة الغربيين على اختلاف مستوياتهم البحثية؛ "إذ يكشف العائد إلى موروثنا الصوتي والمنقّب في مظانّه أنّ النحاة واللغويين -العرب- بخاصة لم يولوا الدراسة المقطعية* اهتماما كبيرا، ولم يلق هذا النوع من البحث حظّا وافرا من عنايتهم، شأنه في ذلك شأن حلّ الظواهر الأدائية؛ أي ما فوق المقطعية كالنبر والتنغيم"².

فمن بين هذه الإشارات التي يمكن عدّها من الإرهاصات الأولى في مجال الدرس الصوتي، فكرة تجزئة الكلام إلى مقاطع فكرة أصيلة عند العرب، حيث أنّ منبعا كان ممتدّا إلى المرحلة التي عاشت فيها العربية لغة شفوية متكئة على السّماع، "إذ ساهمت هذه الطبيعة في تنقية أصوات العربية من كل ما يحدّ من انسيابها أو يقف دون تواردها مقاطعها في إيقاع موسيقى جذاب"³، ممّا يوحي "بأنّ مذهب العرب في التلقين يقوم على نسق إيقاعي مننعم، لأنّ ذلك يساعد الذاكرة على الحفظ والتّخزين، كما يعينها على سرعة الاستحضار"⁴.

ومن تلك الجهود التراثية ما نلفيه عند الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) في تجزئته لبحور الشعر العربي، وما أورده الباقلاني (ت403هـ) في مؤلفه الشهير: إعجاز القرآن، "وطريقة تلقين العرب الناشئة الشعر حيث ترددت في ألفاظ وتعبير بعض النحاة واللغويين العرب عبارتا: حروف المقطع - أي الحروف المفردة والحروف المقطعة - أي المتصلة أو المجموعة، وهذا ما يتلاقح دلاليّا مع مفهوم التقطيع اللغوي المزدوج الذي ستطرحه الدراسات اللسانية الغربية الحديثة فيما بعد، وكان من أبرز من دعاه العالم اللغوي الفرنسي أندريه مارتيني (André Martinée)"⁵.

نحو ما رأينا عند الباقلاني (ت403هـ) نصادفه عند الفراء (ت207هـ) وابن قتيبة (ت276هـ)، وما تردّد من مفاهيم نحو: المصوّت الطويل، المصوّت القصير، المقاطع، إضافة "للتقطيع" القريبة من دلالتها الفنيّة المعهودة اليوم، والتي تعني تجزئة الكلام، وقد ظهرت عند الجاحظ (ت255هـ) في كتابه (البيان والتبيين)."⁶

وتطالعنا بعض المعاجم اللغوية العربية القديمة، بمؤلفات تحمل عناوين صوتيّة نحو: "العين" للخليل، "المقاطع" لأبي حاتم السجستاني (ت235هـ). فضلا عن سيبويه (ت180هـ)، وابن جنّي (ت375هـ)، والسكاكي (ت626هـ) و الزمخشري (ت571هـ).

وإذا تركنا هؤلاء النحاة اللغويين القدامى لنلج تراث الفلاسفة وعلماء الكلام، في قسمه المتعلق بالدراسة الصوتية؛ تستوقفنا -لا محالة- أسماء عربية كثيرة لعل أبرزها ما صنعه وقدمه صاحب كتاب: (شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة) الفارابي (ت339هـ)، وإذا تجاوزنا الدراسة الصوتية للفارابي (ت339هـ) لتتطرق لمن جاء بعده، لوجدنا ابن سينا (ت427هـ) بعد حيازته لثركة الفارابي (ت339هـ) يواصل اجتهاده في هذا الحقل اللغوي، فكذلك الحال مع العلامة ابن رشد (ت590هـ) في دراسته الموسومة بـ: تلخيص الخطابة .

وفي هذا الصدد يقول المستشرق السويدي برتيل مالمبرج (Bertil Malmberg)، وذلك في كتابه علم الأصوات موضحاً: "أن هذه الأعمال المنجزة في الحقل الصوتي اللغوي العربي، أمكن حصرها في اتجاهين اثنين هما: الاتجاه الصوتي التنظيري والاتجاه الوظيفي التطبيقي"⁸.

نخلص مما سلف ذكره، إلى أن الدراسة الصوتية في تراثنا اللغوي بدأت مع النحاة واللغويين إشارات متناثرة في معاجم ومصادر اللغة والنحو، ثم ما لبثت أن عرفت معالجة تطبيقية علمية جادة تقترب إلى حد بعيد مما وقر في الدرس الصوتي الحديث مادة ومصطلحا على يد اللغويين من أهل الاختصاص .

2- ماذا عن الدراسات الصوتية اللغوية الغربية في تنظير النحاة لها ؟

نشأت في الغرب مدارس واتجاهات لغوية فكرية عديدة كان لكل منها اهتماما تنماز به، وإذا رمنا العودة إلى فحوى جملة مقول القول السابقة "إن ما يعرض للغات من تغير هو بفعل قوانين عمياء"، فقد ورد ذكرها على لسان أحد رواد مدرسة لغوية ظهرت في الفترة الزمنية الممتدة ما بين (1870م - 1880م) بالقرن 19 م وتأسست المدرسة بألمانيا، وهي عبارة عن جماعة من البحاثة اللغويين الشباب في معظمهم ألمان، أعادوا تأسيس علمهم بمراجعة قواعده المنهجية وضوابطه الغائية، وكان من أبرز مؤسسيها : كارتوس (Cartius)، وباول (Pauler)، وبروجمان (Prozman)، وعلى رأسهم بول هيرمان (Paul Herman) ... وغيرهم. لقد نادى هؤلاء جميعاً بأن تتجاوز اللسانيات - التاريخية طبعاً - مجرد وصف التغيرات اللغوية المتعاقبة، وأن تسعى إلى تفسيرها بالكشف عن الأسباب المؤدية إليها التي تبحث في صميم الاستعمال اللغوي (أي من استخدام الناطقين باللغة)⁹؛ أي أن النحاة الجدد (Néo Grammairiens) يرون في التغير اللغوي تحكمه قوانين يجب البحث عنها انطلاقاً من التغيرات الصوتية؛ لأنها ترضخ لمقتضيات فيزيولوجية بحسب آليات التصويت والتقطيع بخاصة عند الأداء التعاملي، وللمقتضيات نفسية إذ يترع الإنسان بطبعه إلى مبدأ القياس، وبه تترع الظواهر اللغوية نحو التماثل.

وتأسيساً على ذلك حاول هؤلاء (النحاة الجدد) أن يحولوا العلم اللغوي "اللسانيات" من مجراه الوصفي إلى نهج تحليلي مدفوعين بجاذبية المذهب الوضعي السائد يومئذ، ولكنهم لم يتملصوا من المسلك التاريخي في البحث اللغوي، فكانوا مع اعتراضهم المعرفي أبناء بررة للنحو المقارن.

وواقع الأمر، "إن الرؤيا التاريخية في إطار علم اللغة المقارن في القرن 19 م، جعل تأصيل المعجمي يقوم على تتبع الكلمة في أقدم النصوص في اللغات الكثيرة التي ترجع إلى فصيلة لغوية واحدة، وعلى إدراك البعد التاريخي لحياة المفردات، وتغير دلالتها عبر القرون، ومع تفرع اللغات وافتراقها اعتمد البحث على قوانين التغير الصوتي، التي

جعلت كلمات مفردة في لغات شتى ترجع إلى أصل واحد، وقام التأصيل على معرفة الوسائل التي تتخذها اللغات لتكوين مفرداتها، فاعتمد أيضا على مراعاة الجوانب الاجتماعية والثقافية والنفسيّة في التغيّر الدلالي¹⁰، وبهذا ابتعد التأصيل عن الجدل النظري، وتكوّنت له أسس علميّة تطبيقية دقيقة .

استطاع النحاة الجدد أن يجزؤوا ويدققوا في التفاسير اللسانية، حيث قاموا بتفكيكها إلى ذرات صغيرة "فونيمات" -وحدات صوتية صغرى- ومونيمات أي وحدات معجمية صغرى، ولكنهم ما استطاعوا الربط بين هذه الأجزاء ضمن بنية عامّة؛ "لأنّ النحو المقارن كان منهجه معياري تاريخي"¹¹.

ومع ظهور اللسانيات في القرن 20 م على يد أب اللسانيات العامة مونين فردينان دي سوسير (F De Saussure) عرف ما يسمّى بالمنهج الترامني الوصفي، لتتمكن اللسانيات بدورها من اكتشاف البنية الكلية للسان، حيث اهتمّت أيضا بمكانة اللهجات في حين كان اهتمام النحاة الألمان الجدد في السابق باللهجات الحيّة، وهذا حينما أظهروا نقدا تجاه الدراسة النفسية للغة.

3- الإطار اللغوي عند النحاة الجدد:

يتمثل الإطار اللغوي حول وظيفة اللغة في كونها تعمل على كشف ما في الفكر البشري من معان وتصورات، وذلك ما جعل وظيفتها الأساسية التعبير عن عملية التفكير بما يقتضي إلى تطابق مضمون اللغة مع الفكر ذاته، ويشفع لهؤلاء النحاة الشباب ما قدّمه أعضاؤها من نظريات لسانية تمثلت في مجهوداتهم الفردانية من ذلك مثلا: نظرية أنموذج شجرة النسب؛ أي العائلة اللغوية لصاحبها شلايشر (Schleicher) مع ضرورة الإشارة أيضا إلى وجود عالم لغوي آخر ضمن الجماعة، قد أطلق على نظريته اسما آخر ألا وهو: نظرية الموجات¹² على نقيض النظرية الأولى، إضافة إلى نظرية لسكين (le skin) وهو الآخر باحث ألسني ألماني ينتمي لجماعة النحاة الجدد وأحد تلامذة اللغوي بلومفيلد (Bloomfield) وصاحب نظرية الكوارث¹³ لسيرر (Lesser)¹⁴، ودون إغفال آراء اللغوي الألماني همبولدت (Humboldt)¹⁵ الذي أخذ عنه علماء الأصوات الكثير من أمثال: رومان جاكبسون (Roman Jakobson) وهال (Hall) وتشومسكي (Chomsky) وسوسور (De Saussure)... الخ.

4- أثر همبولدت (Humboldt) في الدراسات اللسانية الحديثة :

مثل القرن 19 م مرحلة انعطاف حاسمة جدّا في الدراسات اللغوية، ومن بين العلماء الذين كان لهم تأثير قويّ خلال تلك الفترة من الزمن على الدراسات اللغوية، بخاصّة اللسانيات البنيوية والتركيبية شخصية العالم الألماني همبولدت (Humboldt) بنظرياته وآرائه في فلسفة اللغة وحضوره المميّز، إلّا أنّه لم ينل حظه الوافر من الشهرة كالتّي عرفها اللغوي دي سوسير (De Saussure)، وإن كان هذا الأخير قد اعتمد في منهجه وعلمه على ما قدّمه همبولدت خاصّة وبعض اللغويين والفلاسفة الألمان عامّة، فهمبولدت (Humboldt) هو مؤسس اللسانيات العامة على الرغم من ذلك يراه بعض المؤرخين للغة وعلى رأسهم: روبنز (Robins) صاحب مؤلف: تاريخ موجز لعالم اللغة في أوروبا أين اعترف بحقيقة أنّ بلومفيلد (Bloomfield) تضاهي مكانته مكانة العالم دي سوسور (De Saussure) في أوروبا، ويعدّ بلومفيلد أب اللسانيات البنيوية بالولايات الأمريكية المتحدة،

كيف لا وهو من تابع دروسه في مدينة لايبزك الألمانية؛ حيث تتلمذ وقتها على (يد علماء مدرسة النحاة الجدد) مطلعاً في الآن ذاته على آراء همبولدت (Hamboldt) إذ وصفه روبرت (Robins) بمؤسس اللسانيات العامة.

والسؤال المطروح في هذا المساق هو: ما علاقة همبولدت باللسانيات بعامة والصوتيات بخاصة؟

يعتبر همبولدت (Hamboldt) في واقع الأمر أول باحث ألماني درس "اللغة الكاوية"¹⁶، وسرّ الاهتمام باللغة الكاوية يتجلى في خروج همبولدت (Hamboldt) عن التيار السائد في عصره (في أمته)، ألا وهو العناية باللغة السنسكريتية (تيار النحو المقارن) بناء على طبيعة الأصل وسلالة اللغة؛ اتجه الرجل إلى هذه اللغة التي تعادل السنسكريتية منزلة، فلم يصرف نظره مثلما فعل "شلايشر" بالسنسكريتية، فهبولدت لم يؤلف على طريقة السلالة، وإنما لم يتبع هذا الإجراء بل حلل بعض اللغات "صوتياً" دون التركيز على القرابة اللغوية، كما عارض تأسيس نحو جامع وفقاً للنمط التقليدي المدرسي لـ: "بور رويال Paur Royal".

لاحظ همبولدت (Hamboldt) بأن آية لغة من لغات العالم تتسم بالدينامية - أي ظاهرة حركية ليست ثابتة - فالدرس اللغوي لا يجب أن يخضع للنظرة المعيارية، وهو الفرق بين النحو التقليدي الذي يؤمن بمبدأ المعيارية على خلاف النحو الوصفي التوليدي أو الوظيفي... الخ

5- خاتمة :

وعطفاً على ما سبق ذكره يمكن القول أن هذا الطرح المقتضب ما هو إلا غيض من فيض، فقد سعى الجدل النظري والتطبيقي لتلك الحقبة التاريخية لليوم في إقامة رابطة بين حقلين لغويين متكاملين هما: "الصوتيات واللسانيات"؛ ليكون بادرة من بؤادر التلاقح العلمي والمعرفي قد جعلت كل متتبع مهتمّ لهما يسلم بحقائق علمية تبرّر حقّ الصوتيات - بالنسبة للغويّ العقود الوسطى لقرون مضت - تفوقها على باقي الفروع المختلفة لعلم اللغة على غرار: (النحو، والصرف، والدلالة، والمعجمية، والبلاغة... الخ)، فلدراسة اللسانيات يعني أولاً وقبل كل شيء السيطرة على تقنيات تحويل فوضى المعطيات الصوتية إلى نظام ممتاز من الوحدات الصوتية "الفونيمات"، و "إذ أخذنا على سبيل المثال كتاب مارتين جوس Martin Joos الموسوم بـ: "قراءات في اللغويات " Readung Linguistics (1957 م)¹⁷ . باعتباره نموذجاً مثلاً لأكثر الأبحاث تأثيراً، إذ نجد فيه مواد أخرى تتعامل مع التنظير والممارسة في التحليل الصوتي، أكثر من أيّ موضوع آخر، وبالتأكيد أكثر من التعامل مع التركيب، وهو خير دليل على ذلك التفاعل المعرفي بين الصوتيات واللسانيات.

الهوامش والمراجع:

- 1- كتابات معاصرة فنون وعلوم-مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية -العدد 78، تشرين الأول، تشرين الثاني، سنة : 2010م، ص:19.
- 2- الدراسة المقطعية في التراث من إشارات النحاة واللغويين إلى تنظير الفلاسفة المسلمين، المهدي بوروبة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-ج2، المجلد 85 ، ط: 2001م-ص: 443 (مخطوط).
- *- النبر : Accent التنغيم Intonation
- 3- ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب ، المهدي بوروبة-قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب ، جامعة تلمسان، عام 2002 م، مخطوط، ص:131.
- 4- هندسة المقاطع الصوتية ، عبد القادر عبد الجليل ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ،عمان ، ط:1، 1981م، ص:23
- 5- ينظر : إعجاز القرآن ، الباقلاني ، تح: السيد أحمد سقر ، دار المعارف ، ط5 ، د،ت، ص:63 .
- 6- ينظر :البيان والتبيين ، الجاحظ عمرو بن بحر ، تح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ومكتبة الهلال بيروت لبنان ، ط:3، 1968 م، ص: 71 -79.
- 7- ينظر: الفهرست، ابن النديم محمد بن إسحاق ، مكتبة الخياط . بيروت لبنان ، د،ت . ص:264
- 8- برتيل مالمبرج : علم الأصوات، ص:157
- 9- محاضرات في الألسنية العامة ، فردينان دي سوسير ، ترجمة : يوسف غازي ومجيد التصر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، ط:1986، ص: 111 .
- 10- حياة اللغة ، ويليام دوايت وايتني ، ترجمة: أحمد الكرايين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ، ط:1991م، ص:165.
- 11- المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، محمد الصغير، بناني،، دار الحكمة، طبعة 2001، ص: 23 .
- 12- ينظر: الموقع على الشبكة: <http://Encyclopédie libre.fr>
- 13- أطلق يوهان شميدت على نظريته (نظرية الموجات) ومعناها أي أنّ مظاهر التجديد اللغوي الصوتي تنبثق في بيئة لغوية واحدة، حيث تظهر في مناطق جغرافية مختلفة لتنتشر في بيئات لغوية أخرى في شكل فروع، بل إنّ العكس هو الصحيح (من الفروع إلى الأصل) ، وبذلك يصبح تقدّم اللغة يشبه الضغط الذي تنجرّ عنه الموجة ، لذا يصل تأثيرها لمجتمعات لغوية أخرى، هذا التأثير يخضع للمصادفة التي عبّر عنها يوهان: بالطريقة العشوائية، فنظرية الموجات نقبض لنظرية شجرة الأنساب عند شلايشر .
- 14- هاجم فيها سيرر فكرة التطور لدى شلايشر .
- 15- هوبولد (1767م-1835م) لغوي ألماني انطلق من مبدأ اللغة هي الوسيلة التي يتكوّن بها الفكر عند مجتمع ما، وذلك في مقارنته الصوتية بين اللغات الهندوأوروبية.
- 16 - اللغة الكاوية أو الجاوية القديمة نسبة إلى جاوا وهي مدينة تقع في أندونيسيا، وبالتالي نقول عن اللغة الكاوية بأنّها اللغة الأندونيسية القديمة حيث كتبت بها أقدم النصوص، والتي يعود تاريخ ميلادها إلى القرن 9م، لكنّها نضجت في القرن 13 م .
- للتوسع أكثر ينظر إلى الموقع السابق : <http://www.Encyclopédie libre.fr>
- 17- ينظر: المدارس اللغوية بين الصراع والتطور، جيفري سامبسون، ترجمة : أحمد نعيم الكرايين ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط:1993 م